

تخريج قصيدة الحج والزيارة

في رحلة أحمد بناصر الدرعي ...

د. عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية، الرباط

كنت وما أزال ولعلي أبقى،من الذين يهتمون بالرحلة والرحل،لأني أعتبر أن هذا النوع من الأدب يهدف أولا وبالذات إلى معرفة الآخر،وأعتبر أن هذا النوع من التعرف ضرب من ضروب التصوف؛ قصَد بعض الرحالة ممارسته حتى يعرفوا ما وراء بيوقم..حتى لا يبطروا معيشتهم ولا يستهينوا بما يوجد داخل بيوقم.

إن كل الكتب التي نستمتع بقراءتها، على اختلاف فنونها، تقتصر على أن تجعل منا قراء لما يحرره أولئك الكتاب دون ما أن نعرف شيئا عنهم هم، عن مشاعرهم، عن اختياراتهم، الحوار مفقود بين الكتاب وقارئه إلا مع الرحالة ... أنت ترافقه وتقارن وتفارق بينه وبينك، بين زمانك وزمانه، تفرح بما تفوقت عليه فيه... ذلك جانب من جوانب فائدة الرحلة والرحالة ...

وقد كان من تلك الرحل التي لازمتني وكتبت عنها رحلة أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي ... أعجبت بها لما احتوته من فوائد تؤكد لي على الوضع الدولي الذي أمسى لمكة بعد فرض ركن الحج ... ولا سيما والشيخ يهتم بالتاريخ السياسي للعالم الإسلامي عندما نبه مثلا إلى ما نقله عن ابن بطوطة مما يتصل بالتاريخ الذي يجمع بين أقطار المغرب الكبير على عهد السلطان أبي عنان[1]. كانت الرحلة مصدرا من مصادر تاريخ المغرب وخاصة منه الجانب الثقافي والاجتماعي، وأنه بالرغم من اشتغال الباحثين بها[2] فإن الرحلة **ما تزال في حاجة إلينا** لتتبع مسالكها واستجلاء غوامضها ...

---

[1]- القصد إلى احتلال مدينة طرابلس من قبل الجنويين وافتداء السلطان أبي عنان لها وإعادتها لأهلها... الرحلة الناصرية ج I ص 64-65- طبعة حجرية بفاس 1320=1902 – د.التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 7، ص 34 وما بعدها رقم الإيداع القانوني 1986/25.

[2]- كان في آخر ما قرأته عن هذه الرحلة ما كتبه الأستاذ الدكتور أحمد عمالك في رسالته بعنوان: الزاوية الناصرية ودوها الاجتماعي والسياسي، وهي أطروحة قدمها، مستحقا، لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ بكلية الآداب جامعة محمد الخامس 1422=2001.

وقد كان مما استرعى انتباهي فيها قضية توثيق ما فيها من الشعر وتخريجه على حد تعبير النقاد.

تتبعت شيخنا العلامة الواصل أبا العباس فيما استشهد به من أشعار... وكانت ملاحظاتي العامة أنه كان يكتفي بقوله: ولله در القائل ... أو قال الشاعر...

وقد عايشته في هذا السلوك منه و لم يهمني، بصراحة، أن أعرف عن بعض الأبيات الشعرية التي اعتاد الناس ترديدها، إلا أنني وجدت نفسي مع قصيدة ذات قافية مختومة بالهاء المرفوعة ... ردد أبياتها أكثر من مرة دون أن يوثقها وينسبها لقائلها ... الأمر الذي استوقفني كثيرا ...

وقد كنت شخصيا من بين "**الغافلين**" إذا صح هذا التعبير، الغافلين الذين تعرضوا للتعقيب والمتابعة مشرقا ومغربا عندما أهملت توثيق بعض الأشعار التي وردت في تحقيقي لرحلة ابن بطوطة التي صدرت عن أكاديمية المملكة المغربية[3].

ولكني رحبت بالزملاء الذين تعقبوني واعتبرت ذلك من باب إثراء البحث وإغنائه، فإن العلم على المناقشة أثبت منه على المتابعة كما كان شيوخنا يقولون[4]!

وقد زاد في فضولي واستطلاعي أن بعض الرحالة اللاحقين تمثل بأبيات من هذه القصيدة، أمثال الغنامي، وأبي مدين الدرعي، والمنالي الزيادي، 1163= 1750 وابن الطيب الشركي 1170 = 1757 والورتيلاني 1193 = 1779.

3- رحلة ابن بطوطة : تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث : رقم الإيداع القانوني 1997/321.

4- د.هلال ناجي: هوامش على رحلة ابن بطوطة، مجلة "العرب" لصاحبها حمد الجاسر، شوال 1420 يناير 2000.د.نجاة المريني : ما أخل به الهامش عند التعليق، العلم الثقافي، 7 دجنبر- 30 دجنبر 2001.

وكان البصيص الأول الذي هداني إلى الطريق أن أقف على بعض هذه القصيدة يتمثل بها المقري الحفيد 1041=1632 **أثناء طوافه** مشيرا بأسلوبه الأدبي الخاص إلى صاحب القصيدة الذي نعته بقوله: (من ربعه بالتقوى مشيد البغدادي الشهير بابن رشيد)[5]:

لقد كان المقري يقصد دون شك إلى ابن رشيد البغدادي صاحب الوتريات، الذي حج عام 661=1263 وليس ابن رشيد السبتي الذي يشكل يضم الراء مصغرا... والذي حج بعد هذا بنحو ستة عقود...

وهكذا توفرنا على اسم الشاعر الذي اهتم به - بصفة محدودة - بعض المؤلفين المغاربة في الماضي والحاضر... وبقي علينا أن نجمع شتات هذه الأبيات لنقف على سائر ما قاله ابن رشيد البغدادي الذي، كما أشرنا يعرف **بالوتري** لأنه نظم عددا من القصائد الوترية في مدح خير البرية، وقد ترجمه ابن عبد الملك المراكشي في تأليفه الذيل والتكملة[6]... ترجمة واسعة **ولكن من غير** أن يذكر شيئا عن قصيدته الهائية هي موضوع حديثنا... ولو أنه أي المراكشي قدم لنا معلومة هامة تتعلق بإعلان ابن رشيد في مجالس وعظه بمراكش، عن الحادثة الشنعاء التي وقعت في بغداد يعني اجتياح التتر للعاصمة العباسية عام 656... ومعنى هذا أن أخبار المشرق كانت تصل إلى المغرب على نحو ما تصل أخبار هذا المغرب إلى المشرق، كما كنا نسمع من ابن بطوطة وهو يتحدث عن أخبار بلاده التي كانت

---

[5]- المقري : نفح الطيب، طبعة بيروت، تحقيق إحسان عباس، ج 5، ص 242.

[6]- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، القسم الأول، تحقيق د. محمد بنشريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1984، ص 274. عبد الله كنون : ترجمة الواعظ البغدادي، مجلة البحث العلمي، العدد 7- 1386=/966.عبد الهادي التازي : حجة ابن رشيد من خلال قصيدته الذهبية، بحث قدم لمجمع اللغة العربية في دورته 2006.

تصله وهو يتنقل من مكان إلى مكان...

ويظهر من كلام ابن عبد الملك المراكشي أن ابن رشيد أقام بمراكش مدة، ثم رحل إلى الأندلس ودخل غرناطة ... ثم كر راجعا إلى مراكش حيث أقام بها فترة قبل أن يلتحق بالمشرق بغية القيام بأداء فريضة الحج في موسم 661=1263.

وبعد أداء المناسك أخذ الطريق إلى المغرب مؤملا العودة إلى مراكش لكن أجله أدركه بتونس عقب صلاة الجمعة لليلة بقيت من المحرم سنة ثلاث وستين وستمائة (21 نونبر 1264).

فماذا عن نشاطه في الحرمين الشريفين؟ وهل إن مثل ابن رشيد يمكن أن يمر بتلك الديار دون أن يترك بصمات هناك؟

وهذا ما حدا بي إلى العودة إلى المصادر الشرقية التي لم يفتها الحديث عن بعض الشخصيات المغربية الوازنة التي كانت تمر بتلك الجهات، وهل ننسى ما ألفه الإمام العلامة الحافظ أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المكي المالكي أحد قضاة مكة المتوفى عام 832، هل ننسى ما ألفه عن مكة والمدينة.

لقد كان مما أسهمت به استجابة لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي التي يوجد مقرها في لندن، بمناسبة إعلان مكة عاصمة للثقافة، كان مما أسهمت به تأليفي (رحلة الرحلات) الذي يقع في مجلدين اثنين[7].

هنا وأنا أعد (فهرس القوافي) لتأليفي هذا اكتشفت **أمر حجة ابن رشيد**، اكتشفت أخبارها، التي غابت عن أهل المغرب الذين ودعوه منذ عام 661=1263 و لم يمكنهم أن يقتفوا أثره بعد ذلك التاريخ **إلا بترديد** أخبار نعيه وهو على أبواب

7- د. التازي : رحلة الرحلات، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي 1426=2005، مكة المكرمة، رقم الإيداع 1425/3830.

تونس... ولم يستثن من هذا الصمت المطبق أحد من السابقين بمن فيهم ابن عبد الملك المراكشي واللاحقين بمن فيهم زميلنا الراحل الشيخ عبد الله كنون ...

ويتساءل الباحث كيف أن سائر الذين تحدثوا عن خزانة تامكروت، أجمعوا على أن المؤسسين كانوا حريصين على تغذيتها بأعيان المؤلفين، لكن القصيدة موضوع الحديث والتي أوردها الشيخ أبو العباس دون شيخه أبي سالم، لم يرى لمؤلفها ذكر...

وهنا أذكر تشنيع الجاحظ على الذين يرددون عبارة"ما ترك الأول للآخر ما يقول فلو سكت آخرنا لما تمت الفائدة لمن يأتي بعدنا[8]!

هناك في المشرق وفي مكة المكرمة بالذات حيث لبيت الدعوة لحضور لقاءات جامعة أم القرى بمناسبة الاحتفال بمكة، كان مما خفف عني العبء أن تقع يدي على جزءي (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام) [9] تأليف قاضي مكة الإمام تقي الدين محمد بن علي الفاسي المكي المالكي(ت 832). ثم كان وقوفي[10] شخصيا على مخطوطتين اثنتين لشفاء الغرام بمكتبة جامعة أم القرى كأننا وراء حسم الموضوع تقريبا حيث تحصلت لدي جل المعلومات التي كنت أتوق إليها. هذه

---

[8]- على ذكر هذه الهائية أنبه لما ورد منسوبا لمحمد بن عبد السلام الناصري: في الإعلام 6، 195:

لله في الخلق ما اختارت مشيئته ما الخير إلا الذي اختاره الله

[9]- طبعة ثانية 1999- الناشر مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة بمكة – باب العمرة ج 2، 481-487، وإني لأشكر بهذه المناسبة الدكتور حسين محمد بافقيه رئيس تحرير مجلة الحج والعمرة سابقا الذي أتحفني بالشفاء والعقد الثمين وكذا منائح الكرم...

[10]- أوقفني سعادة الزميل الدكتور عدنان محمد الفايز الحارثي عميد شؤون المكتبات بجامعة أم القرى، وأستاذ الحضارة الإسلامية على مخطوطتين اثنتين كشفتا لي عن حقيقة أمر "الذهبية"، ونحن نغتنم أيضا هذه الفرصة لنجدد الشكر لطاقم المكتبة وخاصة السيد العميد وكذا الأستاذ فريد علي يحيي الغامدي على سرعة استجابته ولا سيما في ظروف كنت فيها بحاجة إلى النجدة السريعة!

الفائدة الجليلة التي لم تعلق بها يد أحد من قبل، لا في الصيف ولا في الشتاء والله يؤتى فضله من يشاء!

وقد تأكد لي أنه كان لابن رشيد البغدادي نشاطه الملحوظ بمكة المكرمة وبسائر المناسك:تجلى في صدر ما تجلى في نظمه **لقصيدة طويلة بلغت** في مجموعها زهاء مائة وخمسين بيتا، رويها الهاء المرفوعة ...

وقد حملت القصيدة عند تقي الدين الفاسي عنوانا جميلا وشاملا لموضوعيها الاثنين : هو حسب المخطوطتين اللتين توفرنا على صورهما "**الذهبية في الحجة المكية والزورة المحمدية**".

وهكذا نرى أن هذه القصيدة "الذهبية" وصلت إلى **التقي الفاسي** عن طريق سند صحيح موصول يرويه الفاسي عن المعمر بن محمد بن داود الصالحي إذنا مكاتبة[11]، وعن طريق الأصيلة أم الحسن فاطمة، بنت مفتي مكة شهاب الدين أحمد بن قاسم العمري إذنا مشافهة[12] عن الإمام المحدث فخر الدين عثمان بن

---

[11]- ترجم التقي الفاسي في كتابه العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1419=1998ج IIص173)، أقول: ترجم لهذا الرجل فذكر أنه محمد بن داود بن ناصر السننسي الدمشقي يلقب ناصر الدين، ويعرف بالصالحي الشافعي الصوفي، نزيل مكة قال:وكان الصالحي رجلا صالحا، جاور مكة مدة، وكان يسكن برباط ربيع مكة، وبها توفي ليلة الأربعاء الثاني من شهر ربيع الأول سنة **سبع وستين** وسبعمائة ودفن بالمعلاة، قال الفاسي: ومن حجر قبره نقلت وفاته...

[12]- ترجم لها التقي الفاسي في الجزء السادس من العقد الثمين فذكر أنها فاطمة بنت أحمد قاسم بن عبد الرحمن بن أبي بكر الحرازي مسندة مكة،أم الحسن، ويقال لها أم نجم الدين مفتي مكة، شهاب الدين، ولدت بعد سنة عشر وسبعمائة، أجاز لها الفخر التوزري...حدثت وسمع عنها الأعيان من شيوخ التقي الفاسي وغيرهم.وسمع الفاسي عليها الثقفيات العشرة بالمدينة المنورة (جIIمن العقد، ص44) لما كان مجاورا بالمدينة،وبها توفيت أوائل شوال سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة.

محمد بن عثمان المالكي أنشدهما إذنا مشافهة[13]، قال: أنشدنا الأديب أبو بكر[14] محمد بن [محمد] بن عبد الله بن رشيد البغدادي، قال في قصيدة نفيسة سماها "الذهبية في الحجة المكية والزورة المحمدية".

وأفضل أن آتي على ذكر القصيدة على نحو ما فعله التقي الفاسي عندما **اختار** منها هذه الأبيات على ما يدل عله تعبيره **(ومنها قوله)** الذي تكرر خمس عشرة مرة على أن آتي فيما بعد بما بقي منها مما التقطته محيلا على مراجعه ...

قال التقي الفاسي : جاء في الذهبية :

فيا أين أيام تولت على الحما — وليل مع العشاق فيه سهرناه
ونحن لجيران المحصب جيرة — ونوفي لهم حسن الوداد ونرعاه

ومنها قوله :

فهاتيك أيام الحياة، وغيرها — ممات، فيا ليت النوى ما شهدناه!!

13-ترجم له التقي الفاسي في الجزء الخامس من العقد الثمين فذكر أنه عثمان بن محمد بن عثمان بن أبي بكر بن محمد بن داود، الشيخ فخر الدين التوزري المالكي نزيل مكة، ويكنى أبا عمر، أصله من بلاد الفيوم وقدم مصر فتعلم بها على كثير من الأعلام المشايخ ودرس معظم كتب الحديث الشريف، وذكر البرزالي أن شيوخه يزيدون على الألف. وقد قدم الحجاز سنة **سبع وخمس وستمائة**،و لم يزل يتردد إلى الحجاز إلى أن قدمه سنة **تسعين** واستمر مقيما بمكة إلى أن درج بالوفاة إلى رحمة الله يوم الأحد حادي عشر من ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وصلى عليه في مقام إبراهيم ودفن بالمعلاة.. وهذا السيد الجليل عثمان هو الذي سمع بمكة بعد ان قدم الحجاز عام 657 على ما قلنا-سمع القصيدة النفيسة "الذهبية"من ابن رشيد.

14-أجمعت المصادر المغربية على ذكر الاسم هكذا، محمد بن أبي بكر... ومن هنا نتساءل عن اتفاق المخطوطتين المشرقيين على ذكر هذا الاسم هكذا: أبو بكر محمد، ونحن نرجح أن سهوا وقع في المشرق عند الناسخ الذي كتب أبا بكر محمد عوض محمد بن أبي بكر... ونذكر ختاما أن ابن رشيد خلف له بالمغرب أحمد الذي أدركه أجله سنة 679 وهو يمارس تدريس الفقه، انظر وفيات الونشريسي...

ويا ليت عنا أغمض الدهر طرفه! ويا ليت وقتا للفراق فقدناه
وترجع أيام **المحصب** من منى ويبدو ثراه للعيون وحصباه
وتسرح فيه العيس بين ثمامة وتستنشق الأرواح طيب خزاماه!

ومنها قوله:

فشدوا مطايانا إلى الربع ثانيا فإن الهوى عن ربعهم ما ثنيناه!
ففي ربعهم لله بيت مبارك إليه قلوب الناس تهوي وتهواه
يطوف بها الجاني فيغفر ذنبه ويسقط عنه إثمه وخطاياه
وكم لذة ! كم فرحة لطوافه فلله ما أحلى الطواف وأهناه!
نطوف كأنا بالجنان نطوفها ولا هم، لا غم، جميعا نفيناه
فيا شوقنا نحو الطواف وطيبة فذلك طيب لا يعبر معناه
فمن لم يذقه لم يذق قط لذة **فذقه تذق**، يا صاح، ما نحن ذقناه
ترى رجعة أو عودة لطوافنا وذلك الحمى، قبل المنية نغشاه
فو الله لا ننسى **الحمى**، فقلوبنا هناك تركناها، فيا كيف ننساه
و والله لا ننسى زمان مسيرنا إليه، وكل الركب يلتذ مسراه
وقد نسيت أولادنا ونساؤنا وإخواننا والقلب عنهم شغلناه
تراءت لنا أعلام وصل على اللوى فمن ثم أمسى القلب عنهم لويناه
جعلنا إله العرش نصب عيوننا ومن دونه خلف الظهور **نبذناه**
وسرنا نشق البيد للبلد الذي بجهد وشق للنفوس بلغناه
رجالا وركبانا على كل **ضامر** ومن كل فج مقفر قد أتيناه
نخوض إليه **البحر** والبر والدجا ولا مفظع إلا إليه **قطعناه!**
ونطوي الفلا من شدة الشوق فنمشي الفلا نحكي، السجل طويناه؟

للقاولا صدنا عن قصدنا فقد أهلنا ... ولا هجر جـــار أو حبيـــب ألفنـــاه
وأموالانا مبذولـــة، ونفوســـنا ... ولا نبغـــي شـــيئا منـــها منعنـــاه

ومنها قوله:

عرفنا الذي نبغي **ونطلـــب** فـــضله ... فهان علينـــا كـــل شـــيء بـــذلناه
ولو قيل: إن **النـــار** دون مـــزاركم ... دفعنـــا إليهـــا والعـــذول دفعنـــاه!

ومنها قوله:

ترادفت الأشواق، واضطرم الحـــشا ... فمن ذا له ضرم وتضرم أحـــشاه
وأسرى بنا الحادي وأمعن **في السرا** ... وولى الكرى، نوم الجفون نفينـــاه

ومنها قوله:

نحج لبيت حجـــه الرســـل قبلنـــا ... لنشهد نفعا في الكتـــاب وعـــدناه
دعانـــا إليـــه الله عنـــد بنائـــه ... فقلنا لـــه : لبيـــك داع أجبنـــاه
وما زال وفـــد الله يقـــصد مكـــة ... إلى أن بدا البيت العتيق وركنـــاه
فضجت ضيوف الله بالذكر والدعا ... **وكبرت الحجاج** حـــين رأينـــاه
وقد كادت الأرواح **تزهق فرحـــة** ... لما نحن من عظم السرور وجدناه
وطفنا بـــه ســـبعا، رملنـــا ثلاثـــة ... وأربعة مشيا كمـــا قـــد أمرنـــاه
كـــذلك طـــاف الهـــاشمي محمـــد ... طواف **قدوم**، مثل ما طاف طفناه
وسالت دموع من غمـــام جفوننـــا ... على ما مضى من إثم ذنب كسبناه
ونحـــن ضـــيوف الله جئنـــا لبيتـــه ... نريد القرى نبغي من الله حـــسناه
فنادى بنا : أهلا ضـــيوفي **تباشـــروا** ... وقروا عيونا فـــالحجيج أضـــفناه!
فأي قـــرى يعلـــو قرانـــا لـــضيفنا ... وأي ثواب فوق مـــا قـــد أثبنـــاه

ومنها قوله :

فطيبوا وسيروا وافرحوا وتباشـــروا وهنوا وهموا، بابها قـــد فتحنـــاه!
ولا ذنب إلا قـــد غفرنـــاه مـــنكم وما كان من عيب عليكم **سترناه!**

ومنها قوله :

ويوم منى، سرنا إلى الجبـــل الـــذي من البعد قد حيانا كما قد حييناه!
فلا حـــج إلا أن يكـــون بأرضـــه **وقوف**، وهذا في الصحاح رويناه
إليه فـــؤاد المـــرء يـــشعر بالهنـــا ولولاه ما كان **الحجاز** ســـلكناه!!
وبتنا بأقطار **المحـــصب** مـــن مـــنى فيا طيب ليـــل بالمحـــصب بتنـــاه
وســـرنا إليـــه طـــالبين وقوفنـــا عليه، ومن كـــل الوجـــوه أممنـــاه
علـــى **علميـــه** للوقـــوف جلالـــة فلا زالتا تحمـــى وتحـــرس أرجـــاه
وبينـــهما جزنـــا إليـــه برحمـــة فيا طيبها ! ليت الزحـــام رجعنـــاه
ولمـــا رأينـــاه تعـــالى عجيجنـــا نلـــبي، وبالتـــهليل منـــا ملأنـــاه
وفيـــه نزلنـــا بكـــرة بـــذنوبنا وما هو من ثقل المعاصـــي حملنـــاه
وبعد زوال الشمس كان وقوفنـــا إلى الليل، نبكي والدعا قد أطلنـــاه

ومنها قوله :

على عرفات قد وقفنـــا بموقـــف به الذنب مغفـــور وفيـــه محونـــاه!
وقد أقبل **الباري علينـــا بوجهـــه** وقال:ابشروا فالعفوا فيكم نشرناه!
وعنكم ضمنا كل تابعـــة جـــرت عليكم، وأما حقنا قـــد وهبنـــاه!
أقلناكم من كل ما قـــد جنيـــتم ومن كان ذا عذر إلينـــا عـــذرناه

ومنها قوله :

وطـــوبى لمـــن ذاك المقـــام مقامـــه وبشراه في يوم التغـــابن بـــشراه!
نرى موقفا فيـــه الخـــزائن فتحـــت ووالى علينـــا الله منـــه عطايـــاه

ومنها قوله :

ودارت علينا الكأس **بالوصل والرضا** سقينا شرابا مثلـــه مـــا ســـقيناه
فإن شئت تسقى ما سقينا على الحمى فخلى التواني واقصد محلا حللنـــاه

ومنها قوله :

فظـــل حجـــيج الله لليـــل واقفـــا فقيل : انفروا، فالكل منكم قبلناه
أفيـــضوا وأنـــتم حامـــدون إلهكـــم إلى مشعر جاء الكتاب بـــذكراه
وسيروا إليـــه، واذكـــروا الله عنـــده **فسرنا ومن** بعد العـــشاء نزلنـــاه
وفيـــه جمعنـــا مغربـــا لعـــشائنا ترى عابد جمع، بجمـــع جمعنـــاه
وبتنا بـــه (منـــه) التقطنـــا جمارنـــا **وربما ذكرناه** على مـــا هـــداناه
ومنه أفضنا حيث مـــا النـــاس قبلنـــا **أفاضوا**، وغفران الإلـــه طلبنـــاه
ونحو منى ملنـــا، بهـــا كـــان عيـــدنا ونلنا بها ما القلب كـــان تمنـــاه
فمـــن مـــنكم بـــالله عيـــد عـــدنا **فعيد مـــنى** رب البريـــة أعـــلاه
وفيهـــا رمينـــا للعقـــاب جمارنـــا ولا جرم إلا مع جمـــار رمينـــاه

ومنها قوله :

وبـــالخيف أعطانـــا الإلـــه أماننـــا وأذهب عنا كل ما نحن خفنـــاه
وردت إلى البيـــت الحـــرام وفودنـــا رجعنا لها كـــالطير حـــن لمـــأواه

وطفنــا طوافــا للإفاضــة حولــه ولذنا به بعــد الجمــار وزرنــاه
ومن بعد ما زرنــا دخلنــاه دخلــة كأنا دخلنا الخلد حين دخلنــاه!!
ونلنــا أمــان الله عنــد دخولــه كما أخبر القرآن فيمــا قرأنــاه
فيا منزلا قــد كــان أبــرك منــزل نزلناه في الدنيا وبيــت وطئنــاه!
ترى حجة أخــرى إليــك ودخلــة وذاك علــى رب العــلا نتمنــاه
فإخواننا، ما كــان أحلــى دخولنــا إليــه، ولبثــا في حمــاه لبثنــاه
فإخواننــا أوحــشتمونا هنــا لكــم فيا ليتكم معنا وأنا حققنــــاه!!
وبــالحجر الميمــون لــذنا فإنــه لرب الــسما في أرضــه يمنــاه
نقبلــــه مــــن حبنــــا لإلهنــــا فكم لثمة طي الطــواف لثمنــاه
على لثمة للــشعث والغــبر رحمــة فكم أشعث، كم أغبر قد رحمناه!
وذاك لنــا يــوم القيامــة شــاهد وفيه لنا عهــد قــديم عهــدناه
ونــستلم **الــركن** اليمــاني طاعــة ونستغفر المولى إذا مــا لمــسناه
وملتــزم فيــه التزمنــا لــذنبنا عهودا وعفــو الله فيــه لزمنــاه
وكم موقف فيه مجــاب لنــا الــدعا دعونا به، القــصد فيــه نوينــاه
وصلى بأركــان **المقــام** حجيجنــا وفي **زمزم** ماء طهــور وردنــاه
وفيه **الــشفا**، فيــه بلــوغ مرادنــا **لما نحن** ننويــه إذا مــا شــربناه
وبين الصفا **والمروة** الحاج قد ســعى فإن **تمام الحج** تكميــل مــسعاه

ومنها قوله :

وبينا حجــيج الله **بالبيــت محــدق** **ورحمة رب العرش** تدنوا وتغــشاه
تداعت رفاق بالرحيــل فمــا تــرى سوى دمع عين بالــدما مزجنــاه

لفرقـــة بيـــت الله والحجـــر الـــذي لأجلهما شاق الأمـــور شـــققناه!
وودعـــت الحجـــاج بيـــت إلهها وكلهم تجري من الحـــزن **عينـــاه**
فلله كم بـــاك وصـــاحب حـــسرة يود بـــأن الله كـــان توفـــاه !!
ولا يـــشهد التوديـــع يومـــا لبيتـــه وإن فراق البيـــت مـــر وجـــدناه
فمـــا فرقـــه إلا والله إنـــه أمر وأدهى، ذاك شـــيء خبرنـــاه

ومنها قوله :

والله لـــولا أن نؤمـــل عـــودة **لذقنا طعام** الموت حـــين فجعنـــاه
ومن بعد ما طفنـــا طـــواف وداعنـــا رحلنا إلى قبر الحبيـــب ومغنـــاه!

وأعتقد أننا لسنا بحاجة لأن نستعرض موضوعات القصيدة، لكنا نذكر إن هناك ملاحظتين اثنتين:

الأولى أن أسلوب ابن رشيد في "الذهبية" لم يكن يختلف عـــن أســـلوبه في "الوتريات" فهو يفضل **البحر الطويل**، وهو يسير على هواه **وتلقائيته** دون التعلق بالأساليب المتكلفة التي قد تحيد به **عن بساطته** ووضوح كلامه.

الملاحظة الثانية : أن ما عهدناه في ابن رشيد، وهـــو في الوتريـــات، مـــن الإشارة، في بعض الأبيات لأية قرآنية أو حديث نبوي هو نفس الأسلوب الـــذي ركب متنه وهو ينظم (الذهبية)...

لنقرأ هذه الأبيات مثلا:

وسرنا نشق البيـــد للبلـــد الـــذي بجهـــد **وشـــق** للنفـــوس بلغنـــاه!
رجالا وركبانا على **كـــل ضـــامر** ومن كل فج مقفـــر قـــد أتينـــاه!

نخوض إليه البحر والبر والدجا ولا مفظع إلا إليه قطعناه!

وسيكون من السهل جدا أن نتلمس هذا المعنى في **معظم المناسك** التي ذكرها فلا حاجة إذن لتتبع تفاصيل كل ذلك...

فماذا بعد هذا عما استأثر الرحالة المغاربة بذكره من "الذهبية" مما لم يقع عليه اختيار التقي الفاسي؟!

هنا نذكر أن **نصيبا أوفر** من هذه الأبيات يوجد في الرحلة عند الشيخ احمد بن ناصر.

وحتى أستوعب كل الأبيات سواء منها المختارة من لدن المصادر الشرقية أو المذكورة في المصادر المغربية، فإني أورد هنا ما عثرت عليه في الرحلة. وهكذا ففي **الجزء الأول** من الرحلة المطبوعة بفاس[15]: يقول الشيخ الناصري من غير أن ينسب شعر:

وسرنا كأموات لففنا جسومنا لعل يرى ذل العباد وكسرهم
بأكفاننا، كل ذليل لمولاه فيرحمهم رب يرجون رحماه
ينادونه: لبيك! لبيك! ذا العلا وسعديك كل الشرك عنك نفيناه

[15]-تم طبع الرحلة أيام السلطان المولى عبد العزيز بالمطبعة الفاسية يوم 23 ربيع الثاني عام 1320=30 يوليه 1902 وقد كان شيخنا الأستاذ الباشا الحاج محمد الصبحي يعلق في بعض فقرات الرحلة مما جعل النسخة مفيدة.

نرى من واجبنا أن نشكر الأستاذ أحمد الصبحي حفيد شيخنا صاحب المكتبة الصبيحية المنسوبة إليه بمدينة سلا على المساعدة الثمينة. انظر ج II، ص 181-182 عند حديثه عن رابع حيث يتهيأ المغاربة للإحرام.

ولو كنت يا هذا تشاهد حالهم   لأبكاك ذاك الحال في حال مرآه
وجوههم غبر وشعث رؤوسهم   فلا رأس إلا للإلاه كشفناه
لتزداد روعا من خضوع لربنا   وما كان من درع المعاصي خلعناه
وذاك قليل في كثير ذنوبنا   فقد طال ما رب العباد عصيناه!
إلى زمزم زمت ركاب مطايانا   ونحو الصفا عيس الوفود صففناه
تؤم مقاما للخليل معظما   إليه استبقنا، والركاب حثثناه
ونحن نلبي في صعود ومهبط   كذا حالنا في كل مرقى رقيناه
فكم نشز عال قد علته وفودنا   وتعلو لنا الأصوات حين علوناه
نحج لبيت حجه الرسل قبلنا   لنشهد نفعا في كتاب وعدناه
دعا إليه الله عند بنائه   فقلنا له : لبيك داع أجبناه
أتيناك، لبيناك، جئناك،ربنا   إليك هربنا والأنام تركناه
ووجهك نبغي، أنت للقلب قبلة   إذا ما حججنا أنت بالحج رمناه
فما البيت؟ماالأركان؟ما الحجر؟   وما زمزم؟ أنت الذي قد قصدناه!
ماالصفا؟ وأنت منانا،أنت غاية سؤلنا   وأنت الذي دنيا وأخرى أردناه
إليك شددنا الرحل نخترق الفلا   فكم من فدفد في السواد خرقناه !
كذلك ما زلنا نحاول سيرنا   نهارا وليلا عيسنا ما أرحناه!
إلى أن بدا إحدى المعالم من منى   وهبت نسيم للوصال نشقناه!
ونادى بنا الحادي البشارة والهنا   فهذا الحمى، هذا تراه غشيناه!!

يضاف إلى هذا العدد 21 بيتا ما ورد أيضا بالرحلة المطبوعة صفحة 190-191 من أبيات تصل إلى عدد 22 وقد أوردها الشيخ الناصري غير منسوبة هكذا:

قال قائلهم:

ومــازال وقــد الله يطلــب مكــة إلى أن بدا البيت العتيــق وركنــاه
فضجت وفــود الله بالــذكر والــدعا وكبرت الحجــاج حــين رأينــاه
وقد كــادت الأرواح تزهــق فرحــة لما نحن من عظم السرور شــهدناه
تصافحه الأملاك مــن كــان راكبــا وتعتنـــق الماشـــي إذ تتلقـــاه!
وطفنــا بــه ســبعا، رمنــا ثلاثــة وأربعــة مــشيا كمــا وعــدناه
كــذلك طــاف الهــاشمي محمــد طواف قدوم، مثال ما طاف طفناه
وسالت دموع مــن غمــام جفوننــا على ما مضى من إثم ذنب كسبناه
ونحــن ضــيوف الله جئنــا لبيتــه نريد القرى، نبغي من الله حــسناه
فنادى بنا : أهــلا ضــيوفي، تباشــروا وقروا عيونــا فــالحجيج أضــفناه
غــدا تنظــرون في جنــان خلــودكم وذاك قراكم مــع نعــيم ذخرنــاه
فــأي قــرى يعلــو قرانــا لــضيفنا؟ وأي ثواب فوق مــا قــد أثبنــاه
وأبدانكم قد طهــرت مــن ذنــوبكم وما كان من رين القلوب غــسلناه
وكــل مــسيء قــد أقلنــا عثــاره ولا وزر إلا عنكم قــد وضــعناه
ولا نــصب إلا وعنــدي جــزاؤه وكل الــذي أنفقتمــوه حــسبناه
سأعطيكم أضعاف أضــعاف ضــعفه فطيبوا نفوسا، فضلنا قد أفــضناه
رفعت لكم مــا لم تــر العــين مثلــه ولا علمت نفس بما قــد رفعنــاه
فيــا مرحبــا بالقــادمين لبيتنــا إلي حججــتم لا لبيــت بنينــاه
علي الجــزا مــني المثوبــة والرضــى ثــوابكم يــوم الجــزا نتــولاه
وجاهي وإجــلالي وعــزي ورفعــتي وجودي ومن قد أمنا ما رددنــاه
فطيبوا ســرورا وافرحــوا وتباشــروا وتيهوا وهيموا بابنا قــد فتحنــاه!
ولا ذنــب إلا قــد غفرنــاه عــنكم وما كان من عيب عليكم ســترناه

ويضاف إلى هذه القطعة المؤلفة من 22 بيتا ما ورد أيضا في الرحلة المطبوعة ج1، ص 193-194-195 وعددها 39 بيتا وقد أوردها الشيخ الناصري كذلك من غير نسبة لقائلها:

فكم حامد! كم ذاكرا! كم مسبح! … وكم مذنب يشكو لمولاه بلواه
وكم خاضع، كم خاشع متذلل … وكم سائل مدت إلى الله كفاه
وساوى عزيز في **الوقوف** ذليلنا … فكم ثوب ذل في الوقوف لبسناه
ورب دعانا ناظر لخضوعنا … خبير عليم بالذي قد أردناه
ولما رأى تلك الدموع التي جرت … وطول خضوع مع خشوع خضعناه
تجلى علينا بالمثاب، وبالرضى … وباهي بنا الأملاك حين **وقفناه**
وقال : انظروا شعثا وغبرا نداهم … أغثنا، أجرنا يا إلاها عبدناه
وقد هجروا **أموالهم وديارهم** … وأولادهم، والكل يرفع شكواه
إلي، فإني ربهم ومليكهم … لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه؟
ألا فاشهدوا : إني غفرت ذنوبهم … ألا فانسخوا ما كان عنهم كتبناه!
فقد بدلت تلك المساوئ محاسنا … وذلك وعد من لدنا فعلناه
فيا صاحبي، من مثلنا في مقامنا … ومن ذا الذي قد نال ما نحن نلناه !
على عرفات قد وقفنا بموقف … به الذنب مغفور وفيه محوناه
وقد أقبل الباري علينا بوجهه … وقال : أبشروا فالعفو فيكم نشرناه
وعنكم سمحنا كل تابعة حرث … عليكم وأما حقنا قد وهبناه
أقلناكم من كل ما قد جنيتم … ومن كان ذا عذر إلينا عذرناه!!
فيا من أسا، يا من عصا لو رأيتنا … وأوزارنا ترمى، ويرحمنا الله !!
وددت بأن لو كنت حول رحالنا … ونرجو رحيما كلنا قد رجوناه
وقمنا إليه تائبين من الخطأ … وغفراننا من ربنا قد طلبناه
أمرنا بذاك الظن، والله حسبنا … عليه، وهذا في **الحديث** نقلناه

عليه اتكلنا واطمأنت قلوبنا ... لما عنده من وسع عفو عرفناه
فطوبى لمن ذاك المقام مقامه ... وبشراه في يوم التغابن بشراه
نرى موقفا فيه الخزائن فتحت ... ووالى علينا الله منها عطاياه
وصالح مهجورا وقرب مبعدا ... فذاك مقام الصلح فيه أقمناه!
ودارت علينا الكأس بالوصل الرضى ... سقينا شرابا مثله ما سقيناه
فإن شئت تسقي ما سقينا على الحمى ... فخل ألونا واحلل محلا حللناه
وفيه سطنا للرحيم أكفنا ... فقال : كفيتم عفونا قد بسطناه
واعتقنا كلا، وأهدر ما مضى ... وقال لنا : كل العتاب طويناه
وإبليس مغموم لكثرة ما يرى ... من العتق محقور دليل خزيناه
على رأسه يحثوا التراب مناديا ... بأعوانه، ويلاه ذا اليوم ويلاه
وأظهر منه حسرة وندامة ... وكل بناء قد بناه هدمناه
تركناه يبكي بعدما كان ضاحكا ... فكم مذنب من كفه قد سلناه
وكم من منى نلنا بيوم وقوفنا ... وكم من أسير للمعاصي فككناه
وكم ذا رفعنا للإلاه مسائلا ... ولا أحدا ممن نحب نسيناه
وخصصت الآباء والأهل بالدعاء ... وكم صاحب نودي به ودعوناه
كذا فعل الحجاج هاتك عادة ... وما فعل الحجاج نحن تبعناه
فظل حجيج الله لليل واقفا ... فقيل : انفروا، فالكل منكم قبلناه[17]
أفيضوا وانتم حامدون إلاهكم ... إلى مشعر جاء الكتاب بذكراه
وسيروا إليه واذكروا الله عنده ... ذكرنا كما رب العباد هداناه!

وقد أورد الشيخ الناصري وهو في أعقاب طواف الإفاضة عشرين بيتا من الذهبية من غير أن ينسبها مكتفيا بهذه العبارة كما قيل:

[17]- على ما أسلفنا فإن بعض الأبيات مما أثبته الشيخ الناصري رأى التقي الفاسي أنها مما يختصر..

وردت إلى البيت الحرام وفودنا ... تحن له كالطير حن لمأواه
وطفنا طوافا للإفاضة حوله ... ولذنا به بعد الجمار وزرناه
ومن بعد ما زرنا دخلناه دخلة ! ... كانا دخلنا الخالدين دخلناه
ونلنا أمان الله عند دخوله ... كما أخبر القرآن فيما قرأناه
فيا مترلا قد كان أيرك مترل ... نزلناه في الدنيا وبيت وطئناه
ترى حجة أخرى إليه ودخلة ... وذاك على رب الورى نتمناه
وإخواننا ما كان أحلى دخولنا ... إليه، وبتنا في حماه لبثناه
وإخواننا قد أوحشتمونا هنا لكم ... فيا ليتكم معنا أوان حففناه
نطوف به والله يحصى طوافنا ... ليسقط عنا ما نسينا وأحصاه
وبالحجر الميمون لذنا فإنه ... لرب السما في الأرض للخلق : يمناه
تقبل من حبنا لا لا هنا ... فكم لثمة طول الطواف لثمناه !
على لثمة للشعث والغبر رحمة ... فكم أشعث! كم أغبر قد رحمناه
وذاك لنا يوم القيامة شاهد ... وفيه لنا عقد وعهد عهدناه
ونستلم الركن اليماني طاعة ... ونستغفر المولى إذا ما تسلمناه
وملتزم فيه التزمنا لربنا ... عهودا، وعفو إليه فيه لزمناه
وكم موقف فيه يجاب لنا الدعا ... دعونا به والفضل فيه نويناه
ولما قضينا للإلاه مناسكا ... ذكرناه والمطلوب فيه سألناه!
فمن طالب حظا لدنياه ما له ... خلافا لأخراه إذ الله لاقاه
ومن طالب حسنا بدنياه ناويا ... وحسنا بأخراه وذاك يوفاه

وآخـــر لا يبغـــي مـــن الله حجـــة سوى نظرة في وجهه يـــوم يلقـــاه[18]

وحيث إننا قرأنا عند التقي الفاسي هذا البيت من (الذهبية) :

ومن بعد ما طفنا طـــواف وداعنـــا رحلنا إلى قـــبر الحبيـــب ومغنـــاه[19]

فلنتتبع قول ابن رشيد في المدينة المنورة، حيث نجده يقول الـــشعر مـــرتين أولاهما عندما زار الروضة عند الوصول، والثانية عندما أتى ليودع الروضة :

وهكذا وجدناه يقول في البداية : (الرحلة الناصرية، ج II، ص 9)

وصـــلنا إليـــه واتـــصلنا بقربـــه فلله مـــا أحلـــى وصـــولا وصـــلناه
وقمنـــا وســـلمنا عليـــه وإنـــه ليسمعنا من غـــير شـــك شـــككناه
ورد علينـــا بالـــسلام ســـلامنا وقد زادنا فوق الـــذي نحـــن زدنـــاه
كذا كان خلق المصطفى وصـــفاته بذلك في الكتب الـــصحاح وصـــفناه
ومن كان وصى بالـــسلام لأحمـــد فبـــشراه بلغنـــا الـــسلام ونبنـــاه
وثم دعونـــا للأحبـــة كلـــهم وكم من حبيب بالـــدعا خصـــصناه
وملنـــا لتـــسليم الإمـــامين بعـــده فإنهمـــا حقـــا هنـــاك ضـــجيعاه!

وكان شـــعره عنـــدما ورد للـــوداع هكـــذا (الرحلـــة النـــسخة المطبوعـــة، ج II، ص 102)

وقفنـــا تجـــاه المـــصطفى لوداعـــه فـــلا **دمـــع** إلا للـــوداع صـــببناه

---

[18]- على العادة هناك أبيات اختارها التقي الفاسي وهناك أخرى حظيت باختيار الناصري والحجة أننا نمتلك القصيدة كلها...

[19]- يلاحظ أن التقي الفاسي لم يأت في كتابه العقد الثمين بما قاله ابن الرشيد من شعر أمام الروضة.

ولا صبر، كيف الصبر عند فراقـه؟ وهيهات حسن الصبر عنه صرفناه
أيصبر ذو عقل لفرقة أحمد؟ فلا والذي من قاب قوسين أدناه
فوا حسرتاه من وداع محمد وأواه من هذا التفرق أواه!!
فيا وقف توديع له، ما أمره! ووقت اللقاء والله ما كان أحلاه!!
أ مولاي! مالي اليوم جرم جنيته؟ فأخرج من دار الحبيب ومغناه؟
و والله ما اخترت الفراق، وإنما قضاء جرى، والله يقضي قضاياه
سأبكي عليه قدر جهدي فناظري من الشوق لا يرقى من الدمع جفناه
عسى الله يدنيني لأحمد ثانيا فيا حبذا قرب الحبيب ومدناه ؟
فيا ربنا ارزقنا لمغناه عودة! فإن زمانا لا نراه كرهناه !!
رحلنا وخلفنا لديه قلوبنا وكم جسد من غير قلب قلبناه !
ولما تركنا ربعه من ورائنا فلا نظر إلا إليه رددناه
لنغنم منه نظرة بعد نظرة فلما أغبناه، السرور أغبناه!!
فلا عيش يهنا بعد فقد محمد! إلا فقد محبوبي وعيشي أهناه
دعوني أمت شوقا إليه وحسرة وخطو على قبري : بأني أهواه!!

والآن لنعد إلى إطلالة على "الذهبية" أو بالحري لنبق مع ابن رشيد في رحلته إلى تلك الديار عام 661هـ-1205، **عن طريق البحر أحيانا والبر أحيانا** على ما قد نفهمه من البيت رقم (22) من تعداد التقي الفاسي.

وقد ظهر من ابن رشيد في قصيدته أنه يحدو حذو الشعراء الأوائل من افتتاح قصائدهم بما يلفت النظر إلى الحبيب أو الديار أو الحمى، ومن هنا نراه

يتحدث عن أيام المحصب[20] في منى ونحن نعلم عن القولة المشهورة لأبي الطيب المتنبي : (إذا قيل شعر فالنسيب المقدم ..) فابن رشيد يجري في صدر قصيدته على نحو ما يكون من سائر الشعراء.

لقد أطال في هذا المعنى متخيلا أن المحبوب جدير بكل ذلك التذلل وتلك الأتعاب والمشاق مهما عظمت. فالكل يهون أمام الوصول إلى المحبوب الذي يشعر المحب أمامه بأنه ضعيف لا يقدر على شيء مهما كانت قوته وبلغت قدرته وعظم سلطانه.

ونحن الموالي في الأراضي جميعها وفي حي ليلى من أقل عبيدها!!

أهوال الطريق بما يصحبها من جوع ونوع، وتعب ونصب. وبعد كل هذا يصل إلى مكة... وهنا نجده يقدم صورة دقيقة للجماهير الحاشدة التي تجد نفسها لأول مرة في المسجد الحرام أمام البيت العتيق: البكاء والدموع والدهشة، والعي عن الكلام [21]...

---

[20]- المحصب: موقع جغرافي بين مكة ومنى، وهو إلى منى أقرب على ما يؤكده صاحب معجم البلدان، وقد ورد ذكره في شعر عمر ابن أبي ربيعة:

نظرت إليها بالمحصب من منى ولي نظر لولا التحرج عارم!!

كان المبيت بالمحصب مطلوبا بالنسبة للحجاج، ومن هنا جاءت فتواهم بجواز **ترك التحصيب** أي المبيت بالمحصب لغير مفتدى به... ومن المعلوم أن هناك نوازل يجوز فيها للعالم فيما بينه وبين ربه أن يتصرف حسب اجتهاده، ولكن عليه أن لا يتصرف **أمام العامة** بما هو غير معهود لديهم حتى لا يشوش على سلوكهم المعتاد لديهم، وهي سياسة في باب الفقه واسعة، وليقس ما لم يقل ...

[21]- انظر (معجم الموضوعات المطروحة في التأليف الإسلامي) وبيان ما كتب عنها عبد الله بن محمد الحبشي، إصدار المجمع الثقافي – أبو ظبي 1997=1418، انظر ماده الحج – الحجر الأسود – حجر اسماعيل – الحجون، عرفات – زمزم – سقاية العباس – الطواف – الكعبة، مكة. د. عبد الهادي التازي : عائد من أول بيت وضع للناس، جريدة (العلم) السنة 55 -العدد 18498 12 شوال 1421= 7 يناير 2001.

وتكون البداية بطواف القدوم وهنا يأخذ ابن رشيد وقته في هذه العبادة التي لها أكثر من دلالة.. يغرق في الطواف مستعينا بهذا المشهد الفريد، ثم يتحدث عن اتجاهه نحو منى وعرفات والمبيت بالمحصب.. وهنا يردد ما ورد في المأثور حول يوم عرفات، مضمنا شعره ما تناقلته المصادر عن أهمية هذا المكان، وهذا الزمان بحيث تشعر وكأن ابن رشيد يكتب مذكراته شعرا عن تحركاته في المنطقة المحرمة على غير المسلم..

وبعد هذا يتحدث عن المصطلح المعروف بالنفر.. يعني الانطلاق من عرفات إلى المشعر الحرام : المزدلفة.. حيث جمع بين العشائين وتفرغ لالتقاط الجمرات قبل الالتحاق بمنى حيث نجده يعبر عن فرحته الكبرى مفتخرا على الآخرين بقضاء العيد هنا.!! ثم يقصد العقبات الثلاث لرمي الجمرات.. ثم يعود إلى المسجد الحرام بمكة مشبها الحجاج بأنهم كالطيور التي تحن لمأواها الأول. هناك يقوم بطواف **الإفاضة**.

ويسجل ابن رشيد هنا لقطة هامة في حجته قلما تتحقق لحاج من الحجاج.. ويتعلق الأمر بالدخول إلى البيت **الحرام**، إلى داخل الكعبة.. وقد سجل هذه اللقطة في أبيات لا تخلو من إشارة إلى الآية الكريمة (ومن دخله كان آمنا).

ويتعلق ابن رشيد بالملتزم، ويقف عند الركن اليماني ... ويصلي عند مقام إبراهيم .. ويشرب من ماء زمزم الذي ورد فيه الحديث المتداول بين الناس .. ويختم بالسعي بين الصفا والمروة .. على نحو ما اعتدنا قراءته عند الحجاج والعمار..

وبعد هذا يحكي عن حالات الرحيل وآثاره ويذكر طواف الوداع ..

و لم يبق أمامه من مخطط إلا أن يقوم بزيارة **المدينة المنورة** حيث قرأنا عن القطعتين من الشعر اللتين أوردهما من غير سند لهما على ما أسلفنا.

ومرة أخرى نذكر أننا لا ندري كيف حصل عندما انقطعت الأخبار عند المغاربة عندما لم يذكروا ولو كلمة واحدة عن "الذهبية" التي جادت بها قريحة أستاذهم في مكة المكرمة وفي ضواحيها ...

ولا ندري أيضا كيف أن بعض الرحالة المغاربة إلى الديار المشرقية، وأقصد بهم الحجاج، ظلوا أو بعضهم على الأقل، ينقلون من هذه القصيدة في مذكراتهم دون ما أن ينسبوها إلى قائلها ابن رشيد باستثناء المقري الحفيد وابن الطيب الشركي على ما أسلفنا ...

والمهم بالنسبة إلينا، نحن الذين نؤرخ لأدب الرحلات وما دونه الحجاج والمعتمرون، أننا اكتسبنا **رحلة جديدة** لشخصية **مغربية** لفها النسيان رغم مكانتها العلمية والأدبية ...

وهكذا أضفنا إلى ما عرف في التاريخ الوسيط حول الخطاب المتعلق ببث الأشواق لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه السلام، أضفنا هذه **القصيدة** على نحو ما قرأناه للمقري من قصائد في مدح خير البرية، وما قرأنا عن أبي سالم العياشي، ومحمد بن الطيب العلمي صاحب (القصائد العشرة في الشوق للبقاع المطهرة)، أضفنا إلى كل ذلك :"**الذهبية**" التي فلتت - حسب علمي - لجميع المهتمين بهذه الأدبيات المتصلة بتعلق المغاربة بالحرمين الشريفين[22].

ويبدو لي أن الفضل في التنبيه إليها والتدليل عليها يرجع، أول الأمر، إلى

[22]- محمد المنوني: ركب الحاج المغربي- طبعة تطوان...

مغربي حج عام 820 = يناير 1418 واطلع على كتاب (شفاء الغرام) للتقي الفاسي **وقرظه** ونوه بصاحبه أيما تنويه على ما نقرأ في العقد الثمين... ويتعلق الأمر بالشيخ أبي القاسم العبدوسي المتوفى عام 837=1434[23]...

أعتقد أن العبدوسي توفر على **نسخة كاملة من القصيدة الذهبية** وهذا لا يمنع أن تكون "الواسطة" أيضا في حمل أصداء القصيدة الذهبية هو المقري الحفيد الذي افترض كذلك أنه بمناسبة **حجته عام 1028=1619** وقف أيضا على مخطوط شفاء الغرام التي تضمنت هائية ابن رشيد...

وقد دلتني على ذلك إشارتان اثنتان:

الإشارة الأولى تمثل المقري بأبيات مفصلية هامة من القصيدة الهائية.

الإشارة الثانية أنه ذكر في النفح إلى جانب وتريات ابن رشيد ما سماه "**المذهبة**"، يقصد "الذهبية" التي لم نر من **ردد لها ذكرا** بين المؤلفين المغاربة.

وبعد المقري تمهد الأمر للشيخ أبي العباس أحمد بن ناصر الذي كان له الفضل في إبرازها بطريقة لافتة للنظر جعلتنا نتتبع أثارها إلى أن قدمناها لزملائنا... الذين كنت أجد في تشجيعهم ومساعدتهم ما حملني على جمع هذه القصيدة مغتنما هذه الفرصة لأدعو وبإلحاح إلى دراستها فإنها ما تزال في أمس الحاجة إلينا ولا سيما وصاحبها علم من أعلام المغرب والمشرق : ابن رشيد البغدادي المراكشي.

إن مثل هذه الشخصيات، تمثل جسورا قوية ربطت بين المغرب والمشرق على نحو ما هو الحال بالنسبة لعدد من الرجال الذين التحقوا بالمشرق، واندمجوا

---

[23] -التقي الفاسي: العقد الثمين ج II58-67م التازي:تاريخ جامعة القرويين II 302.

مع إخوهم هناك، فيهم من احتفظ بكنيته واسم أسرته ومنهم من اكتسب أسماء أخرى وانتسب إلى أسر أخرى... ويكفي أن نذكر كمثل تلك الطوائف، هاته الحشود من الأسر المغربية المتناثرة في مختلف الديار المشرقية، فيهم من أصبح ذا مركز مسؤول أو متنفذ على ما تتحدث به كتب التراجم، ضمن لائحة العلماء والأئمة والقادة الذين كان لهم دور أي دور في صنع تاريخ المناطق والأقاليم التي وصلوها أو قطنوا بها ممن نقف على أسمائهم وتآليفهم وأعمالهم هنا وهناك، ويكفي أن نضرب المثل اليوم باستحضار هذا البغدادي الأندلسي، المراكشي الحجازي التونسي: ابن رشيد الذي ابتدأ الحديث عنه بالمغرب وانتهى بالمشرق!